● الشيخ عبدالله الحكيمي

اعتمدنا في إعداد هذا الموضوع على عدد من المقالات التي نشرها الشيخ عبدالله علي الحكيمي في صحيفة «السلام» التي كان يصدرها أثناء حياته في مدينة كارديف البريطانية.. وأهمها: «التصوف في عقيدة المسلمين» (عام 1950م)، «العلويون في الميزان» (عام 1950م)، «ما هو التصوف» (عام 1950م)، «التصوف – العلم» (عام 1952م)، إضافة الى مقال مخطوط لم ينشر، بتوقيع الشيخ الحكيمي، آملين تعميم الفائدة من ذلك.

د. خالد سعيد (الأخيرة)

مفهوم التصوف عند الشيخ الحكيمي

النشاط السياسي للصوفية يكاد أن يكون فرض عين عليهم في كثير من الأحوال

فتح وتحرير الشعوب

والقضية الأخرى التي تحدثت عنها كلماته هي فتح وتحرير الشعوب فإنما ذلك لأن هذه هي الرسالة التي أتى بهاالأنبياء وحملها الصوفية، وهي ليست غائبة عن ذهنه وحضورها واضح وجلي.. فالتاريخ يحدثنا أن الإسلام قد شق طريقه بالفتوحات العسكرية في ثلث عالمه اليوم، في حين دخل الثلثان الآخران من خلال فتوحات الصوفية، ودراسة كيفية انتشار الإسلام في أفريقيا كلها عدا الجزء الساحلي والشمالي وكذلك شمال وشرق وجنوب آسيا يبين مدى الإنجاز الذي تحقق على يد صوفية اليمن وخاصة حضرموت وكذلك الطرق الشاذلية والتيجانية والسنوسية والمهدية والمولوية والنقشبندية.. كما يحدثنا التاريخ أن أول نشوء للدولة العثمانية كان بإشارة الشيخ الصوفي أودبالي الذي استطاع أن يجعل من القائد عثمان بن أرطغول مجاهداً دينياً يهب نفسه للجهاد في سبيل الله في أراضي الروم ثم يقيم المساجد والتكايا الصوفية، وهي التي حفظت جوهر الدين في تلك البلاد، ونرى اليوم راياتها تصنع الملاحم الأسطورية في الشيشان والبوسنة والهرسك وفي تركيا نفسها من خلال حزب الفضيلة (الرفاه سابقاً).

يدل على حضور هذا الأمر في ذهن الشيخ المثل الرائع الذي استشهد به بعد عتابه لهؤلاء الناقدين الذين لو تركوا التعصب وتقدموا للتفاهم مع رجال التصوف الصادقين الذين يتهمونم بالخطأ والتقصير لوجدوا مرادهم حسب مرادهم وأنهم نسخة طبق الأصل بل «لوجدوا كل الصيد في جوف الفراء»، فكأنه يقول لهم لا بأس بكم مدوا أيديكم، وإن كنت على يقين أن هذا الأمر ليس له من فرسان غيرنا، فلم يعرف إلا بنا ولم نعرف إلا به، ولكنه كالشمس لا يستطيع أحد النظر إليها لشدة ظهورها.

وبعد أن يخلص إلى هذه النتيجة ويرى الواقع المتخلف في شعوب أمته يعود فيقلب المائدة على رؤوس هؤلاء الذين ينتقدون الصوفية، ويعتبرهم المسؤولين عن هذا الواقع حين شغلوا أنفسهم وأضاعوا جهدهم ووقتهم وجهد الآخرين كذلك بافتعال هذه الأزمات مع الصوفية، ويؤنبهم متسائلاً هل حدث أن جاءوا «للتفاهم مع الصوفية على المبدأ الأساسي ثم دعوهم بعد التفاهم إلى العمل المشترك فترددوا وامتنعوا؟».. انهم لم يفعلوا ذلك ولو كان حدث «لوجدوا مرادهم ما يريدون ولكن أكثر الناس لا يعقلون».

ويحرص على الحديث عن شيخه قائلاً: «أما ما يرجع لوطنيته الحقة ووفائه لبلاده وأمته وحنكته وسياسته الدينية فهو ابن بجدتها وقطب رحاها.. وإنه كان من بناة الوطنية الأكفاء الصادقين المخلصين».

ولا يفوته أن يدعو هؤلاء المنتقدين للعمل المشترك بعد أن كشف له القناع الذي كانوا يجهلونه ويقول: «أنني أكشف لهم القناع بما تم ذكره وبالتالي فهذا نحن، فهاتوا أنفسكم إلى أنفسنا وأيديكم إلى أيدينا متكاتفين متساندين قولاً وعملاً، بحكمة وروية وتعقل، وليبرهن كل على صدقه وإخلاصه في خدمة الإسلام والمسلمين بعد تصحيح المبادئ وتشخيص الهدف المعقول»..

التصوف بين الجهاد والسياسة

ذكرنا أن هناك انتقادات متعارضة وجهت إلى الصوفية خلال التاريخ في مجال العمل العام، منها ما يعيب عليهم جمودهم وعدم اهتمامهم بالشأن العام، ومنها ما يعارض أي نشاط سياسي للصوفية بحجة أنه يتعارض مع مبدأ التصوف الذي يهدف فقط للتربية وتنمية المعارف..

إن هذا التعارض يدل بوضوح على أن النقد لم يكن واقعياً إذ لم يعتمد على دراسة أدبيات التصوف ومسلكيات الصوفية عبر التاريخ وأثرهم على تشكيل الثقافات الإنسانية.. كما أن هذه الانتقادات تفتقر إلى الدقة في تحديد مدلولات الألفاظ.. ولنبدأ أولاً بتحديد المقصود بلفظ السياسة معجمياً:

يحمل لفظ السياسة على إطلاقه معنيين اثنين: أولهما استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل أو الآجل، وثانيهما فن الحكم وإدارة أعمال الدولة الداخلية والخارجية ومنها السياسة الداخلية والسياسة الخارجية.

وبهذا التحديد نجد أن المعنى الأول يتسع ليندرج تحت حكمه الأنبياء والمرسلون وجميع المصلحين والعلماء من أتباعهم وأهل الرأي والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، بينما يقتصر المعنى الثاني على المسؤولين التنفيذيين بأجهزة الدولة.

يسهل هنا تبين خطأ القائلين بمعارضة التصوف لممارسة النشاط السياسي، فهو في إطار المعنى الأول يعتبر واجباً شرعياً يبدأ باستصلاح النفس وينتهي بإصلاح الغير، والاعتراض على هذا العمل يقحم صاحبه في مواجهة مع نصوص شرعية دينية واضحة وصريحة، ويجهل دعوات الأنبياء التي جاءت كلها لاستصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل.. والتصوف إنما هو أثر لدعوة الأنبياء فكيف يجوز أن يكون له منطق مضاد لهم..

وفي المعنى الثاني ليس هناك ما يمنع شرعاً على الصوفية أن يكون لهم وجود ضمن القائمين على إدارة أعمال الدولة فهو حق متاح لكل من توافرت فيه شروط الأداء.. غير أننا نقف فقط أمام مبدأ السعي من وراء الدعوة للحصول على هذا الموقع، وهذا لا ينطبق على الصوفية وحدهم، وإنما يشمل جميع المذاهب الفكرية والسياسية، حيث ينبغي التثبت أولاً من هدف الدعوة لأي منهم، هل المقصود نقد الظواهر السلبية والبحث عن حلول إيجابية لها بصرف النظر عن القائمين بتنفيذ النشاط طالما وهو في مستوى أمانةالمسؤولية، أم أن المقصود هو الحلول بدلاً عن المنفذين فعلاً حتى لو كان العمل إيجابياً.

إن منطق المعارضين لنشاط الصوفية السياسي لا يقوى على مواجهة حقائق الأديان وطبيعة الحياة، بل إننا إذا أمعنا النظر تماماً فسنجد أنه ينبغي أن نؤكد كون نشاطهم السياسي واجباً يصل إلى حد اعتباره فرض عين عليهم في كثير من الأحوال التي تمر على مجتمعاتنا.. إذ أن البديل هو إحدى هذه الاحتمالات الثلاثة:

1- نشوء مجموعات دينية متعصبة يدفعها جهلها وتعصبها إلى ارتكاب الخطايا تجاه مجتمعاتها ظناً منها أنها تخدم الدين ولا تدري أنها إنما تقوض أركانه.

2- تولي الأمر فريق مضاد لتعليمات الدين، ونعلم قطعاً أن تعليمات الدين إذا فهمت حق الفهم فإنها لا تكون إلا صائبة ومن ثم فإن مخالفها لا يمكن أن يكون على حق مهما زين قوله أو فعله.

3- قيام فريق ليس لهم فهم وإدراك لتعليمات السماء ويحصل من ثم التصادم مع توجيهات الدين بقدر جهلهم وتكون النتيجة انتشار الفساد وبروز التخلف في مختلف مناحي الحياة.

وتكون النتيجة حتماً تخلف المجتمع وضعفه واستقواء الآخرين عليه، وهوما نراه للأسف الشديد واقعاً في عالم اليوم حيث حلت النكبة بالمجتمعات الإسلامية لوقوع كل منها تحت ولاية واحدة من التيارات الثلاثة السابقة.

ولقد ظهرت مذاهب دينية حركية منذ بداية القرن تدعو للنهوض بالمجتمعات الإسلامية وإصلاح شأنها، وفرح كثير من المثقفين المسلمين في مختلف البلاد الإسلامية بهذه الدعوات الإصلاحية ودعموها بل واعتنقوا مبادئها ودافعوا عنها، ولم تكن هذه الدعوات تنتمي للمدرسة الصوفية وإنما ناصبتها العداء.. ولأنها كانت كذلك فلقد تعثرت في خطواتها وضلت الطريق منذ تلك اللحظة التي لم تستطع النظر إلى حقيقة مشاكل أمتها.. والأن وبعد مرور قرن من الزمان يستطيع أي مبصر تقييم ما أنجزته، ولن يجد صعوبة في اكتشاف هشاشة اجتهاداتها ومواقفها.. فلا هي طورت مجتمعاتها، ولا هي حملت راية الجهاد ضد المستعمرين، ولا هي اجتهدت في الأمور التي تهم مجتمعات المسلمين، ولم تعد اجتهاداتها أكثر من تحريم زيارة قبور الأولياء، وضرورة ارتفاع القميص شبراً واحداً عن أصابع القدم، وأن لا يقل طول لحية الرجل عن نصف شبر، ومنع تعليم النساء، وضرورة تحطيم أصنام الإعلام كالراديو والتلفزيون.. وكان من جراء ذلك انتشار تلك الموجات الرافضة التي لفظتها رحم الجهالة، وخرجت تحمل السلاح على المسلمين الذين تزعم كفرهم، ولم تدر أنها تخدم أعداء الدين خدمة لم تخطر على بال أكثرهم خيالاً، فإن إضعاف المجتمعات الإسلامية بسبب ذلك قد جعلها عرضة للسخرية حتى من صغار الأعداء الذين ينهشون الآن في جسد الأمة دون خوف من أحد، فقد أصبحت الأمة أعجز من أن ترد ذبابة.

ولقد ارتفعت الأصوات هنا وهناك تطالب بإبعاد الدين عن السياسة بعد أن ذاقت المجتمعات الإسلامية الأمرّين من جهلة الدين، الذين حملوا السلاح ووجهوه ضد المسلمين ودفعوا ببلادهم إلى مشارف هاوية سحيقة.

إن هذه النداءات لن يكتب لها النجاح لسببين رئيسيين:

أولهما: سوف يجعلنا ندور في حلقة مفرغة إذ سيعيدنا إلى حكم نموذج إحدى الفئتين الثانية أو الثالثة المعروضتين آنفا، وهما اللتان لن يقل أثرهما عن أثر هذه التي دفعتنا إلى ذلك.

وثانيهما أن الدين الإسلامي دين واقعي ومرتبط مباشرة بحياة الناس، ومستند الدعوة الجهادية فيه هو ذاته الذي يستند عليه العمل السياسي.

وهنا لا يجد الشيخ الحكيمي نفسه أمام فكرة هل ينبغي للصوفية المشاركة في النشاط السياسي أم لا يجب عليهم ذلك بل يتعداها إلى تقرير أن الصوفية هم الأجدر على إخراج أممهم من أزماتها وإن ما منعهم إلا الانتقادات من تلك المدارس الجديدة التي استقطبت الكثير من المثقفين، وهو الذي ترك أمتنا تستبق الأمم إلى المؤخرة لأنها تُجهِّل أكثر رجالها وتحتقر مبادئهم، فتباعد مسافة القرب وتجعل بينها وبين من هم قاب قوسين أو أدنى بعد المشرقين في حين أنهم «رجال لهم حنكة فذة نادرة، ودهاء عديم النظير، ولو وجدوا من يعرف أغراضهم السامية، ومقاصدهم الرفيعة، واختبروهم لخرجوا بشعوبهم وأممهم إلى شاطئ السلامة في أقرب وقت، بحكمة دقيقة، وأسلوب عجيب، ولقطعوا العضو الأشل وفصلوه عن الجسم السليم».

اجتهادات الحكيمي الصوفية الجهادية

ينتمي الشيخ الحكيمي إلى مدرسة ذات تراث عميق تمتد جذوره عبر التاريخ لتتصل بمنابع النور والرشد من الأنبياء والمرسلين اتصالاً وثيقاً يسهل لها الحكم على الأشياء وفقاً للتعاليم النيرة دون هوى أو تعصب أو سعي لمكاسب شخصية.. كما أنها بأصالتها هذه إنما تستقي الحكمة وتنقلها للناس ببساطة ويسر ليعم الخير جميع البشر.. ولذلك فإننا حين نتابع اجتهاداته وأعماله لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أننا أمام سليل مدرسة عريقة لها حضورها الكبير في الماضي والحاضر، ولها استشراقها البعيد إلى المستقبل.

يبين الشيخ الحكيمي منهجه ودعوته الجهادية الصوفية، وهي التي يطلق عليها في إحدى مراحلها «دعوة الأحرار» موضحاً في البداية الأساس الذي ينطلق منه.. يقول الشيخ:

«إن من المسلم به والمقطوع فيه أن منهج الحق واحد، ودعوات المصلحين لا تختلف عن بعضها وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة.. وهي الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة المظلوم وتحرير العقائد والنفوس والعقول والرقاب من ظلم الظالمين وجور الجائرين، ومن اعتناق العقائد الضالة والمبادئ الهدامة الفاسدة ومن المفاسد والشهوات، وعلى المصلح أن يحارب هذا كله سواء كان نبياً أو كان من إتباع الرسل الذين منحهم الله غيرة وحمية وقوة إرادة لتحمل أعباء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدوع بالحق من غير تردد ولاخوف أو وجل»، والصلة بالأنبياء ضرورة لفهم «القدوة الصالحة في النضال والجهاد وتحرير الشعوب والعقائد والأفكار وفك الرقاب، وما دمت متتبعاً سيرة الأنبياء في هذا المضمار فلا ريب أن تكون الحجة قوية، لأن الدليل مستمد من سيرتهم وماضيهم ثم القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»، وحين يتمثل المؤمن هذا الموقف يكون قد فاز بالمرتبة العظمى التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم وهي خلافة الله ورسوله حين قال: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسوله، وخليفة كتابه»، ولقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده».. ثم يصدح الشيخ بأعلى صوته مبيناً حقيقة دوافعه: «اللهم إننا نُشهد الله وملائكته وخلقه أن الأحرار لا يشنأون أحداً ولا يبغضون أحدا لغرض في نفوسهم أو طلب رفعة وسلطان وعلو في الأرض، وأن ما يقومون به من هذه الدعوة التي لحمتها وسداها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يريدون بهما إلا وجه الله خالصاً، والانتصاف للمظلومين والمضطهدين»، وأن عليهم حينئذ «تحمل تبعاته مهما كان نوعها وقدرها لأنهم يؤدون واجباً آمنوا به واعتنقوه مذهباً ومبدءاً لهم، وهم يعلمون علما لا شك ولا ريب فيه أنهم يتقربون إلى الله بعباده وهي إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ويؤدون للإنسانية خدمة هي من أقدس الخدمات فيرفعون عنها ضيماً تُسام به، ويستخلصون لها حقاً وهبه الله لها فسلبه عنها الأقوياء الظالمون».

تتحدد هنا المهمة الأساسية للدور الجهادي الصوفي المقتدي بخير البشر من الأنبياء والمرسلين وذلك بتحرير الشعوب من العقائد الضالة والمبادئ الهدامة الفاسدة، وهو ما نفهمه بنشر تعاليم الدين الإسلامي الصحيحة في هذه الشعوب، وتحمل دور الخلافة لله ولرسوله ولكتابه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدع بالحق من غير تردد، والمجاهرة بالرأي دون خوف من الظلمة، ونصرة المظلومين واسترداد حقوقهم المغتصبة التي منحهم الله إياها مع الالتزام.

..□